# سلم القمر

تدحرج مرات عديدة بالأثاث المتراكم في وسط البيت وهو يحاول أن يصل لأمه في المطبخ لتعد له كوب حليب، كانت أمه تنجز مهامها وتسلي نفسها بغناء قبيح متقطع خارج من حنجرة لينة، وفستانها الأسود يكاد لا يبين وسط ظلام المطبخ، فبصيص النور المنبثق من خرم الباب قد كان كافيا بالنسبة لها لانجاز مهامها، بينما ما يزال طفلها يستنجد بصوت المؤذن الذي بدأ يعلو للتو في سماء متشققة لعله ينقذه من وحشة الظلام المهيمن على الأجواء، فتح الطفل باب المطبخ على مهل حتى استقر صريره في أذن أمه، ولولا وجود الظلام لاتضح الارتباك على وجهها الجميل، وربما أن الرجل الذي قد فر هاربا من الشباك قد أصيب بكدمات عنيفة، أمسك الطفل بزوائد ثوب أمه والتصق بساقها مذعورا، فهدأت من روعها قليلا وصرخت في وجه طفلها بحدة.

- ما الذي أتى بك إلى هنا... ألم اقل لك لا تخرج من غرفتك أبدا.

لم يجب الطفل وبقي يحملق بالشباك بعينين رجوليتين، فانتبهت أمه لذلك وقالت بنبرة متلعثمة.

- لقد كان خالك.

ابتسم طفلها ببراءة وقال بعذوبة

- ما أكثر أخوالي!

ثم أردف كلامه بطلبه الطفولي

- أريد كوب حليب

لطمته أمه على وجهه، وتركت على خده بقعة حمراء طازجة، تصلح أن تكون وجبة خفيفة لآكلي لحوم البشر، وقالت بعنف استولى على رشاقة جسدها:

- ألا تعلم أيها الغبي أن الرئيس قد حرم الحليب على الأطفال؟!

خرج الطفل مدحورا وهو يجر وراءه أذيال طويلة من أسئلة ملحة، فلم حرم الرئيس الحليب على الأطفال؟ هل صحيح ما قالته أمه أن الحليب مضر بالصحة، هل يعقل أن يكون الخمر أكثر فائدة من الحليب، فالمسؤولون يتفاخرون برفع كؤوس الخمر كأنه ماء زمزم، بيد أن السبب الحقيقي وراء منع أطفال البلدة من شرب الحليب هو طفل الرئيس حيث انه لا يحب الحليب وصحته غير جيده ونموه غير سوي، لذا قرر الرئيس تحريم الحليب على الأطفال فلا يعقل أن يكون أطفال البلدة أصحاء الجسد بينما ابن الرئيس ضعيف البنية.

وهرب الطفل للشارع لعله يستأنس بأضواء الشوارع، فتزيل شيئا من الخوف الساكن في قلبه، لكنه قد ذعر لمنظر فتاة جميلة تستنجد بالمارة من كلب يلعق ساقيها ولم يكن أحد يراها سوى رجل يطل برأسه من بين أغصان الخميلة المجاورة فقد أعجبه منظر الأنثى وهي تتلوى بجسدها جراء دغدغة الكلب، لكنها لم تلبث هنيهة حتى خرت مستسلمة وجلست أرضا بعدما مدت ساقيها للكلب كي يلحسهما فأصبحت تضحك بشدة وكأن الكلب قد أعجبها. فمر موكب أحد المسؤولين أمام الفتاة فقامت من متعتها لتلحق بالموكب وتصفق للمسؤول بكل اخلاص شأنها شأن آلاف الناس الذين يلهثون وراء مصالحهم غير المكتسبة.

لقد كان المسؤول يرفع يده للمارة ونظره مسلط على جيوبهم، فهو يأخذ ولا يعطي بل يؤذي الناس وهم يعلمون لكنهم ما يزالون يصفقون، انثقبت جيوبهم من قوة النظر وأصبحت النقود تملأ فم المسؤول بشراهة، وحينما انتبه الطفل لهذه السرقة حاول جاهدا أن ينبه اللاهثين بخطورة الموقف لكن الرجل العريض ضربه بقوته ليزيحه عن طريقه فوقع الطفل أرضا وهو يتأوه، لقد كان هذا الرجل يستغل تجمع الحشود وقام بتوزيع صور زوجته عليهم طالبا منهم المال مقابل تحديد الموعد. فاشمأز الطفل لمنظر الديوث واستكثر عليه كم اللحم الهائل المعبأ في جسده، وظن أن أمثاله يمتلكون القدرة

على حماية الشرف والتفاخر بنظافته وليس عرضه على المارة وبيعه بأبخس الأثمان.

تنفس الطفل الصعداء، وحملق في السماء المتشققة ليجد سربا من الطيور يلاحق طيرا صغيرا مثقلا بجروحه، وحينما وقع الطير المجروح بالقرب من الطفل هبطت عليه الطيور القوية لتبدأ بنهش الضعيف دون أن يبالوا بوجود الطفل بقربه، وكأنهم أمنوا عاقبة فعلتهم فالقانون يطبق على طيور دون أخرى، فهنيئا للسماء بطيورها القوية!

حاول الطفل جاهدا أن يتخلص من كل خطيئة قد رآها اليوم، وأراد أن يلجأ لعالم الفضيلة، فتوجه للمسجد لعله يجد ضالته لكنه تفاجأ بصراخ شديد يخرج من البيت المجاور للمسجد، لقد كان الابن يصرخ في وجه أبيه بشدة وكأن الأدوار قد قلبت فأصبح الابن أبا والأب ابنا، وحينما خرج الابن العاق بدأ يبتسم في وجه هذا ويصافح ذاك بحرارة بعدما حسب الطفل أن الرحمة قد خرجت من قلب الابن مجرد ما قرر أن يصرخ في وجه أبيه. لذا ركض الطفل بسرعة الريح للمسجد لعله يبتعد عن هذه الوحوش البشرية، لكنه تفاجأ بوجود جنازة في المسجد وحينما تحقق من الأمر تبين أنها جنازة طفلة من عمره قد توفيت عنها أمها ووكل أبوها تربيتها لزوجته الجديدة فقامت زوجة الاب بدهن أذن الطفلة بالعسل في بداية كل ليلة حتى تمكن الذر من الدخول لرأس الطفلة ونهش دماغها وذنبها الوحيد أن والدها كان يحبها أكثر من زوجته وحينما شعرت الزوجة بذلك قررت التخلص من الطفلة بهذه الطريقة البشعة.

أراد الطفل أن يتخلص من كل ما رأته عينه في هذا اليوم، وقصد بيته ليلتزم غرفته مع العلم أن أخواله يزدادون مع شروق شمس يوم أسود جديد، ولم يكن يعلم أن طريق العودة للبيت وعر جدا فهو مليء بالخطايا، وكل خطيئة ألعن من سابقتها، فهذا يخطف الأولاد ليبيع أعضائهم، وتلك تستعرض جمالها أمام صاحب العمل لتحل مكان شاب طموح صاحب كفاءة جيدة، ذنبه أنه ذكر، فيضطر

الذكر أن يسرق بيت ذلك الغني، بينما الغني يريد أن ينتقم بوضع القوانين الصارمة التي تزيد من بؤس كل فقير، فأسرع الطفل خطاه ليصل لعتبة بيته في منتصف الليل والدموع تكاد تغرق وجنتيه الغضتين، وأمه لم تفتقده بعد، لذا استغل انشغالها مع خاله الجديد، وبدأ يبكي على حال أبيه المسجون منذ سنوات في سجن العقلاء، وتهمته في ذلك أنه يفكر وقرر أن يتكلم!

جلس الطفل على عتبة بيته وخطايا الناس ما تزال تمر في معبر ذاكرته بكل هدوء، وتخلف وراءها بقعا غير زائلة من الصداع. بل أصبحوا يتباهون ويتفاخرون بذنوبهم، حتى أصبح الذنب مدعاة للتنافس بين بعضهم بعضا، فرفع رأسه للسماء المتشققة مستنجدا رحمة ربه، فلمح القمر يبتسم له، فظن أنه يتخيل منظره وهو يبتسم، ربما لحاجته الماسة للابتسامة الصادقة في ظل زمن أصبحت فيه الابتسامة تكشف عن أنياب الخبث فحسب، دقق الطفل البصر في عمق القمر ووجده يبتسم له بالفعل وأن ابتسامة القمر حقيقية لا يساورها الخيال، شهق الأمل بقوة، وأطلق زفير الراحة في عمق السماء المتشققة لتبدأ قطعها بالاقتراب من بعضها بعضا حتى تسد الشقوق، ابتسم ابتسامة كان ينتظرها منذ الميلاد، ومد يده نحو القمر لاجئا إليه، وترجاه أن يرفعه عنده لعله يتخلص من مجتمع آيل للحقارة، لعله يستمد من نقاء القمر وصفائه هواءً نقيا خاليا من المرض يعينه على الإصلاح، أعجب القمر بروح الإصرار عند الطفل، وتأمل وجهه الطفولي المليء بتجاعيد القهر، وأراد بالفعل أن يخلصه مما هو فيه، فأنزل إليه سلما يبدأ من عمق القمر وينتهي إلى عتبة بيت الطفل، وأمره بالصعود إليه عبر سلم القمر شريطة ألا يتذكر خطايا البشر وآثامهم كيلا يتأخر بالوصول إلى القمر، لكن الأمر لم يكن في يد الطفل فكان يستذكر الخطايا كلما صعد درجة من درجات السلم وبالتالي كان يرفع قدمه بصعوبة لاجتياز الدرجات، فقد تذكر أمه وأخواله، وتذكر الكلب والفتاة، وتألم كثيرا لاستذكاره الرجل العريض، وبكى بشدة لخداع المسؤول، وتجمدت قدمه في منتصف

السلم حينما تذكر الطفلة المقتولة وزوجة أبيها، حاول أن يستمر في الصعود لكن ألم الذكريات قد منعه من الاستمرار، فحثه القمر على الاستمرار قدر الإمكان وألا يستسلم لأي شيء كان، لكن حينما دبت العزيمة في قلبه ونوى الاستمرار في الصعود بدأت الشمس السوداء في البزوغ من عمق بقايا الشقوق، وبدأ القمر في الاختفاء تدريجيا، فهلع الطفل لهذا المنظر وحاول أن يشد خطاه نحو القمر والإصلاح لكن الشمس قد بزغت وانتهى الأمر واختفى القمر وسلمه فسقط الطفل وبقيت أحلامه في الإصلاح معلقة بين السماء والأرض.

النهاية